غنيمة السفر في أحوال الشيخ جعفر

محمد بن عبدالوهاب الهمداني امام الحرمين

تحقيق محمد كاظم محمودی

چکیده: مؤلف این رساله، میرزا محمد بن عبدالوهاب همدانی ملقّب به امام الحرمین (م ۱۳۰۵ق) شرحی از زندگانی فقیه و واعظ شهیر قرن سیزدهم، شیخ جعفر شوشتری (م ۱۳۰۳) می‌نگارد. در این شرح حال، جزئیات آخرین سفر وی، از نجف به ایران، به ویژه اقامت در تهران و مجالس او در مسجد سپهسالار تهران را که به رحلت در کرند کرمانشاه منتهی شد، به تفصیل و نثر مسجّع عربی باز می‌گوید.

همدانی در پیوست این رساله، دربارهٔ تاریخ وفات چند تن از عالِمان شیعی قرن سیزدهم هجری قمری نیز نکاتی آورده است. مصحّح رساله، در مقدمه، شرح حالی نسبتاً مبسوط از میرزا محمد همدانی بیان می‌کند.

غنيمة السفر

مؤلّف هذه الرسالة هو الميرزا محمّد بن عبد الوهاب الهمداني الملقّب بإمام الحرمين (م ۱۳۰۵ق). وهي سيرةٌ لفقيه القرن الثالث عشر وواعظه الشهير الشيخ جعفر الشوشتري (م ۱۳۰۳ق).

وفي هذه السيرة نطالع ـ وبالنثر العربيّ المسجّع ـ تفاصيل آخر سفرات الشيخ الشوشتري من النجف الأشرف إلى إيران، خصوصا إقامته في طهران ومجالسه المقامة في مسجد سپهسالار، وما انتهت إليه هذه الرحلة من وفاته في مدينة كِرَند بإقليم كرمانشاه.

وقد ألحق كاتب هذه الرسالة بها بعض المطالب حول تاريخ وفاة بعض من علماء الشيعة في القرن الثالث عشر الهجريّ.

أمّا المصحّح فقد أورد في مقدّمة الرسالة ترجمةً مفصّلة نسبيّا للميرزا محمّد الهمداني.

المفردات الأساسيّة: غنيمة السفر (كتاب)؛ الشوشتري، جعفر؛ إمام الحرمين الهمداني، محمّد؛ علماء الشيعة، القرن الثالث عشر الهجري؛ مسجد سپهسالار؛ الوعظ والخطابة، القرن الثالث عشر الهجري.

مقدمه :

وبعد فهذه مقدّمة مختصرة حول المؤلف والكتاب نذكرها في فصلين :

الأوّل : المؤلف

الثاني : الكتاب

وقد ذكرنا ترجمة المؤلف بتفصيل أكثر في مقدّمة كتابه الآخر عطر العروس فراجع .

الفصل الأوّل : المؤلف (م ١٣٠٥)

قال العلاّمة السيد حسن الصدر في تكملة أمل الآمل :

> الميرزا محمد بن عبدالوهاب بن داود الهمداني الكاظمي ، فاضل عالم أديب كامل نحوي لغوي شاعر مصنّف ، حسن المحاضرة ، جيّد الحفظ ، حسن التحرير ، يعدّ في الكاملين في العلوم الأدبية . كان يرى نفسه كاملاً في كلّ العلوم ، كثير التبجّح بنفسه ، مبالغاً في حبّ التعرّف عند الملوك والرؤساء وأعيان العصر ، أتعب نفسه في جمع الإجازات من علماء عصره حتى جمع من ذلك مجلّداً ضخماً . وكان المتصدّي للقضاء في بلد الكاظمين ، وأخذ في ذلك منشوراً من السلطان ناصر الدين شاه لمّا جاء إلى الزيارة ، وكاتب السلطان العثماني بتواريخ عملها في جلوسه ، وحصل [منه على] لقب إمام الحرمين ، وكنّى نفسه بأبي المحاسن ... وكانت له خزائن كتب جيدة .[1]

وقال عنه الشيخ المتتبّع آقابزرگ طهراني في نقباء البشر :

> علاّمة جليل ، كان عالماً فاضلاً أديباً لغوياً فقيهاً أصولياً متكلّماً شاعراً مصنّفاً ، جامعاً للفنون ، حسن المحاضرة ، جيد الخط ... نصبه السلطان ناصر الدين شاه قاضياً بالكاظمية سنة ١٢٨٧ ...[2] .

ولكتب حسين علي محفوظ رسالة مبسوطة في ترجمة احواله .

ويعرف بابن داود نسبة إلى جدّه .

وصحب الشيخ جعفر التستري وغيره من العلماء وله من الكتب :

١ . آداب الدعاء ؛

٢ . إجازته للسيد إسماعيل الصدر الموسوي العاملي الإصبهاني الكاظمي ؛

٣ . إجازته لبعض المستجيزين منه ؛

٤ . إجازته للسيد عناية الله السامائي ؛

٥ . إجازته للشيخ محمدعلي بن الشيخ جعفر التستري ؛

٦ . إزهاق الباطل ؛

٧ . الأسنّة ؛

١ . تكملة أمل الآمل ، ج ٥ ، ص ٥ـ٦ ، رقم ٢٠٣٩ .

٢ . نقباء البشر ، ج ٥ ، ص ٢٣٦ ، رقم ٣٣١ .

۸. البشری في الصلوات الباهرة؛
۹. تاریخ سلاطین ترکیا العثمانیی؛
۱۰. تحریم تقلید المیت؛
۱۱. تقریرات درس الشیخ مرتضی الأنصاري؛
۱۲. تقریظة علی منتخب الدمعة الساکبة؛
۱۳. جمع الشتات في ذکر صور الإجازات؛
۱۴. جُنگ (کشکول)؛
۱۵. الجوهر النضید؛
۱۶. الجوهر النظیم؛
۱۷. حدیقة الطّلاب؛
۱۸. درّة الأسلاك في حکم دخّان التنباك؛
۱۹. الرجال؛
۲۰. الزهرة البارقة؛
۲۱. شجرة الخلد في الإجازة لأعزّ الولد؛
۲۲. الشجرة المورقة والمشیخة المؤنقة؛
۲۳. شرائط الدعاء؛
۲۴. شرح حدّ الکلمة؛
۲۵. شرح الزهرة البارقة؛
۲۶. شرح لغز الصمدیة؛
۲۷. عبیر التعبیر؛
۲۸. عجائب الأسرار؛
۲۹. عصمة الأذهاب؛
۳۰. عطر العروس؛
۳۱. غنیمة السفر وسنذکره مستقلاً؛
۳۲. الغنیمة في إبطال الرؤیة؛
۳۳. فصوص الیواقیت في نصوص المواقیت؛
۳۴. کشف الإبهام عن وجه مغني ابن هشام؛
۳۵. کشف النقاب عن المسائل الصعاب؛
۳۶. المحاسن في الإنشاءات والمراسلات مع سائر الطبقات؛
۳۷. المشکاة في مسائل الخمس والزکاة؛

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

٣٨. مقامة؛
٣٩. ملوك الكلام في جمع ماجرى بيننا وبين أولى الأفهام؛
٤٠. المواعظ البالغة من الآيات والروايات وفنون الحكايات؛
٤١. الموجز في شرح القانون الملغز؛
٤٢. نامه نامي (٦٢ رسالة له بالفارسية)؛
٤٣. نزهة القلوب والخواطر ببعض ماتركه الأوائل للأواخر؛
٤٤. هبة الشباب في علمي الإعراب.

***

الفصل الثاني: غنيمة السفر في أحوال الشيخ جعفر (م ١٣٠٣) وفي ذيله ذكر تاريخ بعض مشايخه.

والنسخة بخطه موجودة في مجموعة في خزانة الشيخ علي كاشف، وأخرى عند الشيخ مهدي التستري، فرغ منها في ٢٣/ربيع الأوّل/١٣٠٣، والثانية بخط محمدعلي فرغ منها في ١٣/ رجب/١٣٠٣.

طبع بالأهواز عام ١٣٦٩ في ٤٨ صفحة بمطبعة الصافي، توجد مصورتها في مكتبة «مؤسسة تراث الشيعة» بقم، كما توجد مصورة نسخة مكتبة الشيخ محمدحسين كاشف الغطاء وتقع في ٣٢ صفحة ولعلها متحدة مع النسخة الأولى، وتنقص قليلاً في آخرها عن المطبوعة بالأهواز، ففي طبعة الأهواز ذكر وفيات وإجازات ملحقة بالكتاب لم ترد في مخطوطتنا المعتمدة كما نبهنا بالهامش، وفيها أيضاً تاريخ استنساخ الكتاب لسنة ١٣٤٠ من سلخ ربيع الآخر.

وقد قابلنا المطبوع بالمخطوط، وأشرنا إلى المغايرات بينهما بالهامش.

هذا، ولابأس بذكر ترجمة التستري المعقود لاجله الكتاب نقلاً عن نقباء البشر وهذا خلاصته:

> التستري الشهير بالنجّار، من أعاظم العلماء، وأجلاّء الفقهاء والمشاهير في عصره... كان في الأوائل شريك البحث مع العلاّمة الشيخ محمدحسن آل ياسين الكاظمي.... وفي ١٢٤٦ ذهبا إلى تستر فراراً من الطاعون، ثم جاء إلى كربلا فحضرا بحث مؤلّف الفصول... ثمّ رحلا إلى النجف وحضرا بحث مؤلف الجواهر، ثم في ١٢٥٥ رجع إلى تستر، ولمّا نبغ الشيخ الانصاري رجع إلى النجف أيضاً وتلمّذ عليه سنين، ثم ذهب إلى تستر وصار مرجعاً للتقليد ورئيساً مطاعاً، وكتب منهج الرشاد لعمل المقلدين، وبنى حسينية كانت حمىً ومجاراً، فاستجار بها رجل مجرم بنظر الوالي فأمر الوالي بإخراجه منها قهراً، فلما بلغ الخبر إلى الشيخ أمر بسدّ باب الحسينية وخرج بأهله إلى النجف، وقام بوظائف الإمامة والتدريس والوعظ ولم يرجع إلى تستر، وقد اختلف في سنة رجوعه إلى النجف بين (١٢٨٧) و (١٢٩١)، وفي ١٣٠٢ سافر إلى

خراســان، وكان يوم وروده إلى طهران يوماً مشــهوداً، وكان ذلك قبل شهر رمضان، فاجتمع عليه الناس، والتمســوا منه البقــاء فأجابهم، وهو أوّل من أقام الجماعة في المســجد الناصري (سپهســالار)، فكان يرقى المنبر ويعظ الناس... كان أحد آيــات عصره في التدين والورع، وله تصانيف كثيرة منها: الخصائص الحسـينية، و فوائد المشــاهد، و المجالس الثلاث عشر، و منهج الرشاد، ورسالة جليلة بالفارســية في أصول الدين تقرب من ألفي سطر كتبها بعنوان أنّ معرفــة أُصول الدين من مقدمات الصلاة، و مبادئ الأُصول، ورأيت إجازته للســيد عبدالصمد التســتري مؤرخة في ١٢٩٢ عدّ من مشــايخه الشــيخ علي والشيخ حســن ابني كاشف الغطاء، ومؤلفي الفصول والجواهر، والشيخ الأنصاري، وهو من بيت علم، ذكرنا والده في الكرام البررة وجدّه في الكواكب المنتشرة.[٣]

هذا والحمد للّــه أوّلاً وآخراً.

١٨/جمادى الأُولى/١٤٣١

بسم اللــه الرحمن الرحيم

سبحان الذي أسرى بعبده فدنى وتدلى، وأشرق نور جماله على قلبه المطئن وتجلى، فاستصغر المكاره في جنب رضاه، واصطبر على الفوادح تســليما لقضاه، وتحمل الأذايا في إبلاغ أحكامه إلى البرايا، والصلاة على آله الذين بذلوا نفائس نفوسهم في ترويج الدين، وعرضوها للحتوف في إعلاء كلمة اليقين، والسلام على العلماء الدين مشوا مميشاهم فغشيهم من الرزايا ماتغشاهم.

أما بعد فيقول العبد العديم، المفتقر إلى مولاه الغني القديم، ومن طوى من بَوادي العلوم الأديم، بأيدي براق الذهن اســليم، محمد ابن مــن عرج إلى عرش التقى، ونهج معارج القــدس وارتقى، عبدالوهاب الهمداني -قدس سرّه النوراني-: هذه وريقات اسمها غنيمة السفر في أحوال الشيخ جعفر، أنشاناها ارتجالاً على رأس القلم إجابةً لالتماس بعض الأحباب، ومن اللــه الاستعانة في كل باب، فنقول:

هو الشــيخ جعفر بن الحســين بن الحســن بن علي التستري (قدّس اللــه ســره) السري، ولد في تســتر، وحوى مناقب لاتســتر، وكان تبتهج به الدنيا وتسـر، ارتحل هو وأبوه إلى النجف الأشرف، واغترف من بحار علوم علمائه الأعلام ما اغترف.

وقرأ على الفقيه النبيه البر الشيخ علي ابن الشيخ جعفر، (تغمّدهما اللــه) بفضله الأوفر، فانكشف له الغطأ في الفقه عن كلّ فرع مضمر.

وعلى من قلد الدين الحنيف جواهر، الشــيخ محمد حسن ابن الشيخ باقر، تغمّه هما اللــه بفضله الوافر، فحاز من علومه الزواهر، وغيره نال الظواهر.

٣. نقباء البشر، ج ١، ص ٢٨٤ - ٢٨٧، رقم ٥٠٠.

وعلى من عقمت أرحام حوّاء عـن مثله، ولا تكفي البحار لبلّ الأنامل في عدّ أوراق كتاب فضله، شيخنا المرتضى ابن امين الانصارى التستري (قدّس سرّه السري).

فعقل نفسـه بعقال، وجال في ميدان الخيال، ولم يحس بكلال، إلى أن نال مانال، فأسّـس أركان بيت العلم ورفع قواعده، ونور مشـكاة القلب في زجاجة الصدر وأوقد مصباح الفضل والستكشف رموزه وفوائده.

وبعد أن اسـتضاءت مشـكاة نبراسـه رجع في سـنة خمس وخمسـين بعد الألف والمائتين إلى مسقط رأسه، واشـتغل بتدريس علوم الدين وترويج الشـرع المبين، وكنت أسمع أخباره، وأتنسّم آثاره، إلى أن عاد ولا تسأل عن الباعث، فإنّك أدرى بالحوادث:

وطول مقـام المرء فـي الحّي مخلق ... لديباجتيـه فاغتـرب يتجـدّد

فإنّي رأيت الشـمس زيـدت محبّة ... إلى الناس أن ليسـت عليهم بسـرمد

ومجمل الأمر أنّ طعم العافية لذّ بفيه واحلولى، ورأى الوقوف في صف السلامة أولى:

لقد رضيت همم بالخمول ومالت عن الرتب العاليه وما جهلت طيب طعم العلى ولكنها تؤثر العافيه.

فنفض من الرياسة الذيل، ومال إلى المجاورة في المشاهد الشريفة كلّ الميل.

فورد سنة إحدى وتسـعين بعد الألف والمئين المشهد الكاظمي، وأروى بزلال كماله كل ظمي، وأقررت أنا بطلعته الناظر، ورياته جمّ المفاخر، مرئي القدس ومسموعه، ومعدن الزهد وينوبعه، لم تصدّه الدنيا بشَرَكها، وخلّص نفسه من شبكها، لم يتدنّس بأدناسها، ولم يبتلِ بأرجاسها.

كانت مسائلة الركبان تخبرني عن جعفر بن حسين أحسن الخبر.

حتى التقينا فلا والله ما سمعت اذني بأحسن ممّا قد رأى بصري.

ووجدتـه منتهيـاً من الفضائل إلى أعلى الجـدّ، مقتنياً للفقه والأُصول بالاجتهـاد والجد، ماله في طريقتـه المثلى ندّ، أخرج إلينا من نتائج فكره الغريب النّمـط، فرأينا أنّ صغراها فضلاً عن كبراها قد تجاوزت الحد الأوسط.

وله كتاب في المراثي فيه فوائد سـنية سـمّاه بالخصائص الحسـينية لم نر من سـلك منهاجه، وقد التمسنا أن نملي له خطبة وديباجة.

وله في الوعظ أُسـلوب عن غيره مسـلوب، وطريقة أنيقة لا تعدل بهـا طريقة، وهى الموعظة في الحقيقة، إذا وعظ تفجّرت ينابيع الحكمة من لسـانه، وجرت جداول العرفان من بيانه، لم يسبقه في أُسـلوبه سابق، ولا يرجى في حسن سـبكه الخارق أن يكون له لاحق، تارة يسـترق القلوب بجزالة وعظه فيضرم فيها نيران الشـجون، وطوراً يسـتميل النفوس بعذوبة لفظه فيجري من العيون العيون،

كأنّ المطالب نصب عينيه، والمعاني طوع يديه، ولولا انقطاع الوحي لقنا يوحى إليه.

لا يدرك الواصف المطري خصائصه وإن يكن سابقاً في كل ما وصفا

وكان تحت المنبر ممن يستضئى ببدره الأزهر فضلاء يستمعون وعظه ويكتبون لفظه، ظنّاً منهم أنّهم إن ضبطوا نتائج ضمائره ونسائج خواطره اقتدروا على أدائه وبيانه، ولم يعرفوا أنّ حسن الورد في أغضانه، وأنّ التأثير في لسانه، فما كلّ حطب عود، ولا كلّ مترنّم داود.

وكم عقعق قد رام مشية قبجة فأنسي مَمشاه ولم يمش كالحجل

وكان الغالب في وعظه الإنذار والتهديد، وذكر الوعيد على نمط جديد، وتخويف من خلق من صلصال كالفخار، وجعل شعاره التكبّر والفخار، وقد اهتدى بوعظه خلق كثير، وجعل في جيد الهدى عقداً من درر بيانه العديم النظير، وإذا رأيت كتابنا المترجم بالمواعظ البالغة والعيون السائغة للستدللت به على صدق هذه المقالة، وظهر لكّ أنّا من نور فضله وضوء وعظه اشعلنا تلك الذبالة، فهي من لمعات أنواره، ونفحات أسراره، ولجج بحاره، وقد رآه فأبهره، وحمدالله وشكره:

حكمٌ كأمثال النجوم تلألأت من ضوء ما فيها من الأسرار
أو نفحةٌ قدسيةٌ جليت بها مرآة ذات الله للنظّار
ولقد روت الفاظها عن لؤلؤ عن مائه بحر المعارف جاري
وتنسّمت كلماتها عن جنّة حُفّت من التوحيد بالنوار
كشف الغطاء بيانها فكأنّها للسامعين بصائر الأبصار
فكأنّها عين اليقين تفجّرت من فوق عرش الله بالأنهار

وجملة الأمر أنّ أخباره كانت لِسمعي نحلاً، ولقاءه كان لعيني كحلاً، وكان بيننا من المفاوضة ما بين الورد والتفّاح، والنور والمصباح، ومؤاخاة هي المصافاة بين الأشباح والأرواح، والراح والأقداح.

وأرسلنا إليه عدة من كتبنا البديعة، التي أمليناها في علوم الشريعة، فكتب لنا إجازة في غاية الوجازة، وكان يظهر بذلك المفاخرة، ولم يحجبه عن قول الحق حجاب المعاصرة، وذلك من كمال إيمانه، وإنصافه في إخوانه، وعدم إخفائه للشهادة وكتمانه، وإلاّ فمقتضى المعاصرة السكوت، وإن كان المعاصر خير منعوت حائزاً لفواضل النعوت.

ويظهر من قوله في الإجازة: «وأنا أولى بالاستجازة» أنّه كان مضمراً في نفسه أن يتسجيز منّا ويروي الأخبار عنّا، وهذا من الأمور الخفية، والروابط المعنوية، فإنّه كثيراً ما يتفق أنّ إنساناً يذكر إنساناً، ويصفه زماناً، وذلك الانسان يذكر الواصف في ذلك الزمان، كما أنّه حين طلبنا منه الإجازة وقع في قلبه الاستجازة.

ثم عرّج على النجف الأشـرف للمقام، وشـجّج فيه أوتاد الخيام، واشـتغل بالتدريس، والوعظ النفيس، فجدد رسـوم الأفاضل، وأحيي مآثر الأوائل، وسلمت له السعادة زمامها، وذلّلت له سنامها، ومـا زالت أخباره تترامى إلي، بأثنيتـه الجميلة علي، فيزداد غرس ولائه في قلبي إثماراً، وهلال وفائه بين جوانحي إقماراً.

وكان من أئمة الجماعة، ملازماً للعبادة والطاعة، مدّخراً كنز القناعه.

واشـتهر صيته في البلدان، إلى أن انتبه له الدهر الوسـنان، وسـاقه إلى خراسان، عازماً على زيارة الإمام الهمام، علي بن موسـى الرضا عليه السلام، فاتّخذ التوكّل دليله، والتوسـل سبيله، وسار إلى كربلاء، وزار الحسـين والشـهداء، (روحي لهم الفداء) يم إلى بغداد، وزار موسى والجواد، سلام اللـه عليها أبد الآباد.

ثم خرج من بغداد المعمورة، التي هى بالمحاسسن مغمورة، وشيعه علماء أعلام، وأمراء عظام، وسـادات فخام، وتجارٌ وأشراف، وسـائر الأصناف، والمودعون يزررون لعناق التوديع أعضادهم على الأجياد، والمشيعون يذرّون على الواء فتات الأكباد، منشدين عن صميم الفواد:

يا راحلاً و جميل الصبر يتبعه ... هل من سبيلٍ إلى لقياك يتفق

ما أنصفتك دموع وهي دامية ... ولا وفا لك قلبٌ وهو يحترق

وأخذ هو يعانقني عند الوداع للسفر، وقلدته أنا من رائق دموعي الدرر:

لاغـرو مـن جزعـي لبينهـم ... يـوم النـوى وأنـا أخوالهـم

فالقـوس مـن خشـب تئـنّ إذا ... مـا كلّفوهـا فرقـة السـهم

وكان غالب مسـيره في مناطق الجبال، التي لا يبلغ ذراها طائر الخيال، وقد خرج لاستقباله في كل بلد الأُمراء والوجوه، وانشرح بملاقاته صدر كل منهم فوق مايرجوه.

ولـم يزل في المسـير، إلى أن ورد المزار المنير، مطاف الملائكة الكـرام، والقصبة التي فيها مرقد ملاذ الأنام، أبي القاسـم عبدالعظيم بن عبداللـه بن على بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام، وكان عابداً ورعاً مرضياً، له كتاب خطب امير المؤمنين عليه السلام، وقد ورد الري هارباً من السلطان، وسـكن سرباً في دار رجل من الشـيعه في سـكة الموالي، وكان يعبداللـه في ذلك السرب، ويصوم نهاره، ويقوم ليله، وقد يخرج متخفّياً فيزور القبر المقابل قبره، وبينهما الطريق، ويقول: هو قبر رجل من ولد موسى بن جعفر عليه السلام، فلم يزل يأوي إلى ذلك السرب ويقع خبره إلى الواحد بعد الواحد من شـيعة آل محمد حتى عرفه أكثرهم، فرأى رجل من الشيعة رسـول اللـه صلى الله عليه وآله في المنام قال له: «إنّ رجلاً من ولدي يحمل من سكة الموالي ويدفن عند شجرة التفاح في باغ عبدالجبار بن عبدالوهاب»، وأشـار إلى المكان الذي دفن فيه، فذهب الرجل ليشتري الشجرة ومكانها من صاحبها فقال له: لأي

شيء الشجرة ومكانها؟ فأخبره بالرؤيا، فذكر صاحب الشجرة أنّه رأى مثل هذه الرؤيا، وأنّه قد جعل موضع الشجرة مع جميع الباغ وقفاً على الشريف والشيعة، يدفنون فيه، فمرض عبدالعظيم ومات رحمه الله، فلما جرّد ليغسل وجد في جيبه رقعة فيها ذكر نسبه طبق ما ذكرناه.

وعن ثواب الأعمال لابن بابويه عمن دخل على الهادي عليه السلام من أهل الري قال: دخلت على أبي الحسن العسكري عليه السلام فقال لي: اين كنت؟ قلت: زرت الحسين عليه السلام، قال: أمَا إنّك لو زرت قبر عبدالعظيم عندكم لكنت كمن زار الحسين بن علي عليهما السلام.

وكان وروده بها لثلاثة عشر ليلة بقين من شهر الصيام، فاستقبله زمرة من سكنة الصبة، من العلماء والطلبة، والأمراء والكسبة، وهم يزمرون بالسرور، ويرمزون بالحبور، فبلغ خبره إلى طهران، فخرج إليه جماعة من العلماء الأعيان، مع الأصحاب والخلاّن، وأمناء السلطان، والأمراء والأقران، وأهل السيف والطيلسان، والنساء والولدان، ومن في البلد من قطّان، بل لم يبق به إنسان، ولا يرى في الصحراء مكان، وتلقّوه بالإحسان، والابتهاج بالقلب والاستبشار باللسان، والتمسوا أن يرتحل إليهم فأجاب وكشف عنهم الأحزان.

وورد على من هو للسعد مطلع، وللمجد مربع، وللفضل مجمع، وللورد مشرع، وللوفد منبع، وللناس مفزع، وهو علامة الدنيا، والآخذ على رغم أنف كل قرن بقرني غانية الرتبة العيا، المولى علاءالدين أبي جعفر علي الكني، الذي نشر ثنائه الجميل فنّي، وإنّي أقرع سنّي ندماً على ما ندّ منّي وبدر عنّي، من عدم الاهتمام في شدّ الرحال لزيارة هذا الهمام، فانه الجوهر المجرد، والعلم المفرد والعلم الذي لا ينفد، له همة تنطح عنان السماء، وحشمة تتمنطق بالجوزاة، لكنّي كتبت إليه مسائل لأستمطر صحائب أفكاره الغرّ، فألهاه عن الجواب التكاثر، وإلاّ فهو في العلم عبب، بل البحر في جنب فضله كلمع السراب، لا برحت أيامه ولياليه، وأعلامه ومعاليه، في بهاء وسعود، وارتقاء وصعود، فأنزله في قلبه مكاناً علياً، وقلّده من جواهر افضاله حلياً، وأقام في ضيافته في الري، له من حبّه شرب وري، وخلّى بينه وبين المسجد المعروف بالمروي، فكان يصلي فيه ويروي، ويعظ بالمروي، ويبرد الغليل ويروي، واجتمع الناس من فاجر ومن برّ، وكادت تخضر تحته أعواد المنبر، وتعطّر الجامع به طيباً، ولم يدر الجماعة أضمّخ طيباً أم ضمّ خطيباً.

وزاره ليلة قدومه الأمراء والأكابر، والوزراء الذين حازوا المفاخر، وورثوا المكارم كابراً عن كابر، وأول من زاره المجبول على حب العلماء من الصبى، المتجلبب بأخلاف ألطف من نسيم الصبا، الراقي في الجلالة أعلى المراتب، المسامت هممه هام الكواكب، البدر المنير، العديم النظير، سبط السلاطين، وزير الحرب، نائب السلطنه الغرّاء، صانه الله من النوائب والضّراء، وأظهر له من التوقير مالم يخطر بضمير، ودعاه أن يزور المكلل بحلل الجلالة، المتوجّ بتاج العدالة، الكاسر لجيوش الضلالة، الناصر لمذهب أهل بيت الرسالة، الساطع آيات الهدى من جبينه، الرافع رايات الهدى

بيمينه، السلطان بن السلطان، والخاقان ابن الخاقان ناصر الدين شاه، شدّ الله أطناب دولته بأوتاد الخلود، كما زين سرير سلطنته بالعزّ والسعود، وكان فيم نتزة له بعيد، في قصر مشيد، فاعتذر بأنّه ناوٍ للإقامة، وينا فيها الخروج عن حد الترخّص، وكان عذرة عن حقيقة لا للتخلص، ولما سمع السلطان بقدومه إلى طهران، دعاه إيمانه الراسخ إلى أن طوى الفراسخ، وسار إلى البلد وهو صائم، لزيارة هذا العالم القادم، وأمّا هو فلمّا بلغه أن ظلّ الله دخل البلد، لم يبق له على لقائه جلد، فسارع إلى دار ابنه نائب السلطنه يلزور الوالد بمصاحبه الولد، لا فرّق الله الصمد بينهما مدى الأبد، فسارا ودخلا عليه في مكان رفيع البنيان، شامخ الأركان، فيه حوض يحكي السلسبيل، ماله في حسن شكله مثيل.

كأنه عين الحياة التي ... لاحظت الخضر بعمرٍ طويل
كم صادرٍ عنه وكم واردٍ ... منه لقد برّد منه الغليل

ولما وقع نظر السلطان عليه، استقبله مسرعاً إليه ثم جلسا واتخذه ولياً، وأحله من احترامه مكان علياً، واسترّ بملاقاته ومقالاته، حتى كادت اقدام مسرّته ورأسك العزيز تسامت الثّريا، وطال الجلوس ولم يتفق هذا السواه، أتدري ما لهذا الجلوس من الفضل عند الله، وجرى بينهما ماجرى ممّا لا صلاح في كشفه للورى، ثم قال الشيخ: كنت أسمع أنّ أهل الري زيوا بزي الإفرنج وتزينوا، والآن تبين لي أنّهم بغير دين الإسلام لم يتدينوا، واعتقدت أنهم على الفطرة الظاهرة، جبلوا على حبّ العترة الطاهرة، لرغبتهم في الطاعة، وحبهم لصلاة الجماعة، وإصغائهم للمواعظه، واستفتائهم في المسائل الغوامض، فقال السلطان: إن تغير فيهم تقطيع اللباس فأقطع بأن لم يتغير إيمانهم الذي هو الأساس، وأساس الإيمان هو الذي يدفع الضير، ولباس التقوى ذلك خير، ثم قال السلطان: إنّ المسجد المروي وإن كان كبيراً في نفسه إلاّ أنّه لا يسع الجماعة، ويحرم البعض من هذه الطاعة، فإنّ الناس يهرعون، ومن كان حدب نيسلون، شيباً وشبّاناً، وكهولاً وغلماناً، وشيوخاً وولداناً، وإناثاً وذكراناً، فلو صليت في المسجد الجديد البناء، الوسيع الفضاء، لكان أجمع لمن رام من الأنام الاقتداء والاهتداء.

أقول: وهذا الجامع، للمحاسن جامع، لم ير مثله في البلاد، فاق إرم ذات العماد، وهو فسيح الأرجاء، متّسع كالدهناء، متمنطقٌ بالجوزاء، به باهت الغبراء الخضراء، عرض صحنه ستون ذراعاً، وطوله أكثر. [فيه من الحجر ما وصع بأنواع الجر]، وجوانبه الأربعة مرتبتان في غاية الرصانة مرتبتان، فيه من المقصورة ماعليه المحاسن مقصورة، ومن الدعائم مايعانق الغمائم، وفي طرف القبلة إيوان وسيع، في بنيان رفيع، وفيه قبة طولها من المحراب إلى الصحن اثنان وأربعون ذراعاً، وعرضها أربعون، وارتفاعها ستة وثلاثون، وفي جانبه الشرقي مصلّى في غاية الكبر، مشتمل على أربع وأربعين اسطوانة من حجر، له بابان، فبا به الشرقي عالي، والغربي ممتاز متعالي، مزين بأحجار كاللآلي، في جنبه منارتان منيرتان ما ادرى أنّهما عمودان للسماء أوميلان في عيون الأعداء:

وفيحاء لو مـرّت صبا الريح بينما ... لضلّت وظلت تستثير الدلائلا

متى ترها خلت السماء سرادقاً ... عليها وأعلام النجوم تماثلا

فلو أبصرت ذات العماد عمادها ... لأمست أعاليها جداءً أسافلا

وهذا الجامع السامي المراتب ليس فيه امام راتب، فاستحسن الشيخ رأيه الصائب، لازالت دولته لجلد الدول روحا، ووهب الله لأعدائه حتوفاً وله فتوحاً، وكان اذا راح إلى المسجد المزبور، وركب لبعد المسافه اليعفور، واحتف به الجمهور، وحصل للعوام والخواص من الإخلاص ماهو سبب الخلاص يوم لامناص، ولهم على تقبيل يديه والتمسّح برجليه ازدحام اذا مر في الشوارع، ولاكازدحام الإبل في المشارع، كأنّه ملك نزل من السماء، أو نبي رجع من الانبياء، وصاحت امراة: يا أهل الري، يا أهل الغي، أخاف عليكم أن تصنعوا بهذا الشيخ الهمام ماصنع اهل الكوفه بمسلم ابن عقيل عليه السلام، رفعوه إلى السماء والطارق، ثم رموا به من شاهق.

وأمر السلطان صهره على أخته المصونة ورضيعته المكنونه عزة الدوله (أدام اللّه عزها) كما جعل لها أخاها كنزها وحرزها، وهو الكريم الأخلاق، الطيب الأصول والأعراق، الواقع على عراقته الاتفاق، محيي المجد المؤثّل في الآفاق مشير الدوله يحيى خان، لاخان به الزمان، أن يحوط به هو وجمع من الأعيان، فكانوا يمشون أمامه وعليهم الديباج، يكشفون الناس عن المنهاج.

فصلّى في العشرة الأخيرة من شهر رمضان في ذلك الجامع الوسيع، واقتدى به في كل يوم أربعون ألفاً من وضيع ورفيع، وصعد المنبر، ووعظ كالسيل إذا انحدر، وحضر مجلس وعظه العلماء والأفاضل، وأبناء الملوك الأماثل، والأُمراء المشار إليهم بالأنامل، والأعيان والوجوه والأشراف، والتجار وسائر الأصناف، والعفائف المخدّرات، وسائر النساء والبنات، منضّمين كأسنان المشاط، يتنفسون عن مثل سمّ الخياط، وقد شاع خبره في الأطراف، فهوت إليه أفئدة الأشراف، وتسابقت إليه الأُمم من جميع الأكناف، وتوجهوا نحو قبلته، وحجّوا من كلّ فجّ عميق نحو كعبته، وكانوا للاريتاح إلى رؤياه «كا انتفض العصفور بلله القطر»، وللطرب إلى لقياه «كما طرب النشوان مالت به الخمر»، فقد عبق بنشر المواعظ أرجاء طهران، وتفوّق على زهر النجوم ألفاظه في البيان، وتذلّلت له الرقاب، وتسهّلت له الصعاب، وخضعت له الأعادي، وتليت آيات مجده في النوادي، وشاع صيته حتى في البوادي؟

وباهل يوماً العصاة على المنبر فقال بعد أن فكّر وقدّر ووعظ وذكّر: من يزعم أنه لاصانع ولامحشر فليقل إنّي بريء من حول ربّ جعفر، فإن لم يزهق روحه في مكانه فليبق على عصيانه، فأصغوا لما يقول، وطارت منهم العقول، وأضمرت القلوب له القبول وانحلّ من عيون العصاة عصام الزفرات، وانهلّ غمام العبرات، ودانت له النفوس العاصية، ولانت له القلوب القاسية، وحملهم كلام هذا الواعظ النصيح على توبة نصوح، وأتى في كل باب بما هو فصل الخطاب، وأظهر من اللباب ما أبهر

أولي الألباب، وأكّد ما استودع في أذهانهم، واستيقنوه فيا جنانهم، وازدادوا بمواعظه إيماناً على إيمانهم، وقد أهدوا إليه أموالاً جزيلة عن محبّة، فلم يقبل منها حبة، فإنّه كفّ كفّه عن زخرف الدنيا ونضرتها، وصرف طرف طرفه عن رعى أزهار زهرتها.

واعلم أنّ التعظيم قد جعله الله للنبوة فرضاً، فقال ﴿لا تَجْعَلُوا دُعاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً﴾[٤]، ولما ختمت الرساله وفتحت الإمامة ردت إليها الكرامة، وبعد الإمامة النيابة التى تعظيمها في غاية الإصابة، والعلماء هم ورثة الأنبياء، ومدادهم أفضل من دماء الشهداء، وبأمدادهم ترويج الشريعة الغرّاء، وهم النّواب عن الأئمة، والهداة للأمّة، ولم يعرف هذا الأمر من السلاطين الطيب [ي]النجار بعد الصفوية إلاّ بنو قاجار، خلد الله ملكهم مابقي الليل والنهار، ولاسيما هذا السلطان، العظيم الشأن، أدام الله دولته التي به ثبت أساسها، وأضاء نبراسها، وطاب غراسها، وتنوّعت بالمكارم أجناسها، وهذا هو السبب لدوام دولتهم العلية، وقوام صولتهم القوية، فإنّ نصر الدول إن كان بمال عليه اعتمادهم، أو برجال به إمدادهم، أو بسلاح به إسعادهم، فدولة ايران ينصرون بعدل وصلاح به اعتضادهم، وبولاء هو عمادهم، وبعلماء بهم اعتقادهم، ومن أبناء الزمان إلاّ أهالي إيران، فإنّهم مجبولون على حسن الفطرة وحب العترة، وبهم قوام الشريعه ودعام الملة الرفيعة، كثّر الله أمثالهم في الزمان، كما أعزّ بهم الإيمان، بتعظيمهم لشعائر خير الشرائع والأديان.

ثمّ شدّ الشيخ رواحل الأسفار، وقطع مراحل الفيافي والقفار، فالتهب في الناس أوار الأشواق، وشبّت في الضمائر نار الأتواق، وانهلّت المدامع من الأحداق، وخرج في مستهلّ شوّال من طهران، وساق نجائب عزمه إلى خراسان، وشيعه من الخلائق أكثر من كرمت منه الخلائق، مظهرين من جزع الفراق أضعاف ما أظهره شيعة العراق، فواصل السُرى، قواطع الكرى، وماورد منهلاً، ولانزل منزلاً، ولا دخل بلداً، إلاّكان قدوة لمن اقتدى، والسراج المنير لمن استرشد واهتدى، لم يخرج إلى جناتها المشحونة بالأشجار، الجارية تحتها الأنهار، ولاطربت نفسه لاستشمام الأنوار، والنظر إلى الأزهار، بل كان همّه آناء الليل وأطراف النهار، دعاء الناس إلى الهدى، والايمان بالله الذي لم يتركهم سدى، ومنع النفوس عن معصيته الملك القدوس، فنوّر ساحة إيران بوجهه المنير، وعطّر العالم في وعظه بنشر العبير، واهتدى بمواعظه خلق كثير وجمع غفير، وفاحت له في سفره نفحات ألطاف، وقرّت بذلك عيون ورغمت آناف.

ولما اعتلى مقامه، وامتلى جامه، وشاع ذكره بين الملاء، وبيض وجوه العلماء والفضلاء، وصيته طار بأجنحة الثناء في الأقطار. كثر له المدح، وجاء له نصر الله والفتح، ورأى الناس يدخلون في دين الله أفواجاً، ويسلكون من الهدى منهاجاً، ساق الدهر خيول نوائبه اليه، وسنّ مواضيه لقرع كتائبه عليه، فبسبّح ذلك الأاه، الأوّاب، مستغفراً بحمد ربه التّواب، وحالت الأحوال، وآذنت شمس حياته بالزوال، فعرض جوهر ذاته عرض، وثصب الحمام لصيد حمام روحه فخّ المرض، وتأخّر

٤. النور (٢٤): آية ٦٣.

في سبزوار عن الزوّار ونزل على ثمر شجرة النبوة، وشجر ثمر الفتوّة، من رفع قواعد بيت المشرف القديم، العليم الحليم إبراهيم، فقام بضيافة مابها من قصور، وحديث ضيف إبراهيم مشهور، ثمّ أركبه في التخت، وساعده البخت، فصاحبه إلى الأرض المقدّسة، والروضة التي على التقسى مؤسسة، وبذل من مكارم الأخلاق مايضيق عن حصر خصره النطاق.

فخرج لاستقباله أهل طوس، والبقعة التي كأنّها حلّة طاووس، من دخلها كان آمناً من النار، ولو كانت ذنوبه مثل قطر الأمطار وورق الأشجار، والمشهد الذي مازاره مكروب إلاّ نفس الله كروبه، ولا مذنب إلاّ غفر الله ذنوبه، ما تقدم منها وما تأخر، ولو كان مثل عدد النجوم أو أكثر، وكتب الله له أجر مائة ألف مؤمن حج واعتمر، والروضة التي لايزورها مؤمن إلاّ أعتقه الله من النار، وأحلّه دار القرار، وكتب الله له أجر مائة ألف مجاهد من الأبرار، ومائة ألف شهيد بارّ، ومرقد الإمام الذي زيارته أفضل من زيارة الحسين عليه السلام، لأن الحسين يزوره كلّ الناس، وهذا الإمام لايزوره إلاّ الخواص، ومن زاره عارفاً حقّه أتته البشائر بدخول الجنّة وإن كان من أهل الكبائر، وعرفان حقه أن يعلم أنّه إمام مفترض الطاعه يجب عليه له إلا طاعة.

وبعد وروده حضر من الأطبّاء لعلاجه، وإصلاح مزاجه، من لورآه ابن سينا لوقف ببابه، أو ابن دانيال لاكتحل بتراب أعتابه، فخفّ عنه المرض في أيام، ولم يحصل له البرء النام، فصلى بالناس جماعة، ووعظهم وهداهم إلى الطاعة، مع الضعف وعدم الاستطاعة.

وهناك رجل يسمى احمد، يزعم بعض أنّه في خراسان في الوعظ أوحد، وقد غرّته الأماني فأبرق وأرعد، وسكر بأقلّ من زيبة وعربد، فكان يعظ بالرجاء في هاتيك الأرجاء، بعكس ما يعظ به الشيخ من الخوف والرجاء، والوعد والوعيد، على نمط جديد، وطرز مفيد، وكلما كان يؤدى الشيخ ما عليه من النحت، لم ينصرف أحمد ـ مع فقده الوزن والمعرفة ـ عن غيه ويتحرج من فوق إلى تحت، غافلاً عن كون الخوف والرجاء شريكي نان، وفرسي رهان، فأعرض الشيخ عن جداله، وتركه في عريض ضلاله، إذلم يطمع منه برشاد، ﴿**ومن يضلل الله فماله من هاد**﴾[5]، والطود يحقر نطحة الإوعال، ونور الله المتعال لايطف؟ بأفواه الرجال، ولعل الذى جسّره على هذا الكلام، أمانه كبعض الأنام، من سيف الملك العلاّم، وعذابه المعدّلأ هل الآنام، وقد اقتضى هذا الامن شيوع الفجور بين الجمهور:

وقد يهلك الإنسان من باب أمنه ... وينجو باذن الله من حيث يحذر

وحرّي بالمؤمن ولو أمن العذاب أن يحمل الأنام في المعاصى على الاجتناب، ولايجرئهم بما يرجّيهم على الارتكاب، ولما قال دعبل الخزاعي:

لقد خفت في الدنيا وأيام وسعيها ... وإنّي لأرجو الأمن بعد وفاتي

قال له الرضاع: آمنك الله يوم الفزع الأكبر.

٥. الرعد (١٣): آية ٣٣.

فعلـم أن الأمن من في الدنيا يوجب الخوف في العقبى، والخوف فيها يوجب الأمان، ولا يجتمع أمنـان، وبالجملة ماسـمعت مثل ذلك الواعظ اللئيـم بين الملأ، فبالله عليـك اذا ذكرت الوعاظ يوماً فاستثنه بخلا، والإنصاف أن ليس للّئام نذير يمنعهم عن الدنية إلاّ السيف الذي يذيقهم المنية:

كل قوم لهم نذير ولكن　　خلق السيف للّئام نذيرا

وأقام الشـيخ بخراسـان أياماً قلائل لاتبلغ الشهر الكامل، وسـار منها إلى الري، مسوعاً في السير والطـي، واحترق في بعض المنازل خباءه، واشـتدّ بذلك عناءه، وتطيـر بذلك بعض صحبه وركبه، وزاده كربـاً على كربه، كما أنّه لما سـقط فصّ خاتمه فـي جلولا، ماطأب له هذا السـفر وما احلولا، لكنـه لم يقف اثر شـحيح ضاع في الترب خاتمـه، فلم يقف وقونه إذ تأبى ذلـك مكارمه، بل ارتحل واستعجل، وعزم وتوكّل.

فإن قلت: إن كان استشـعار الموت مـن ضياع الخاتم واحتراق الخباء مـن الطيرة، فما الوجه في صدوره من أصحاب الخيرة؟ قلـت: ليس ذلك من التطير، وليس فيه من تحير، بل هو كما قال الامام علـي ابن ابيطالب عليه السلام حين رفرفت الإوزّ، وصحن في صحـن الدار في وجهه الأغرّ الأعز: صوارخ وصوائح تتبعها نوائح، ولمّا أراد أن يفتح الباب انحلّ منه المئزر، فشدّه وانشد واستعبر:

اشدد حيازيمك للموت　　فـإنّ المـوت لاقيـكا
ولا تجـزع مـن الموت　　إذا حـل بواديـكا
ولاتغتـرّ بالدهـر　　وان كان يواسـيكا
كمـا أضحـكك الدهـر　　كـذاك الدهـر يبكيـكا

وإنّما التطير ما يحكى عن بعض من أنّه إذا سـافر كان معه جاز بالحاء المهملة والزاء المعجمة أي زاجر يحز وله فيما يسمعه ويراه يقول له: إنّي سمعت قائلاً يقول كذا فيقول الحازي: هو كذا، ويسمّى بالعيافة، وهو أحد العلوم التي لايعوّل عليها كالقيافة والسيافة.

ودخـل طهران في غرّه شـهر محرم الحرام، الذي حلّ البلاء فيه بالإسـلام، وشـهر بهلاله عضباً على أهل بيـت النبوّة عليهم السلام، وأحلّ منهم الدماء وحرّم عليهم الماء، وغالب ظنّي أنّه لم ينزل في رجوعه عندالعلامـة الكني، لازال في العيش المتهني، وفي ترويـج الدين في التثني، لبعد منزلة المعمور عن المسـجد المذكـور الذي عينه الملك المنصور، واسـتؤجرت له دار قريبة، ولـم يكن ذلك عن آراء مصيبة، بل لما سـوّل لبعض أصحابه مـن الظنون، لأمور تكون أولا تكـون، فازدحم عليه الخواص والعوام، وسقى بزلال وصاله الأنام، وأضاء بنور جماله الإسلام، وكان يقيم القيامة عليا لمنبر في مأتم سبط سيدالبشر، والشفيع المشفّع في المحشر، في العشرة الأولى وبعض الثانية من المحرّم، وتجرى الدمـاء عن الدموع من عيون الأمـم، وزاره الوزير الكبير، والبدر المنير الصافي الضمير، المسـتوفى

لمكارم الأخلاق، المتملك لممالك الجلالة بالاتفاق، المترشّح من عناصره النجابة، والرامي بسهام أفكاره عن إصابة، الراقي بالمناقب أعلى المراتب.

ولو عُلمت فوق الوزارة رتبة تنال بمجد في الحيوة لنالها

الأجل الأكرم، الصدر الأعظم، وتاج رأس السلطنة المزين بجواهر الحكم، لازال الخلوص للدولة شعاره، والصدق في الخدمة دثاره، وصنع له من الملاطفة الظاهرة ما يدل على طيب مراضعه، وكلامه بكلام تحقق منه أجنحة تواضعه، وانتشر بينهما من الكلام في ترويج الإسلام ما تفوح روائحه بعد أعوام.

ثمّ زاره أبناء الملوك الذين سامتوا بالمناقب الكواكب، والوزراء الذين سموا في المراتب، وسائر أرباب المناصب، على اختلاف طبقاتهم وتفاوت درجاتهم، وزاره العلماء الذين من وجوههم النور يقتبس، كأنّهم في دياجي الظلماء قبس، ومن طلبة العلوم تضيىء أنوار فضائلهم كالنجوم، وأمّا التجّار والكسبة وسائر الأنام، فلهم مدى الليالي والأيام، حول بيته طواف واستلام والسلطان وإن كان لا يعرّج أحد، إلى عرش جلاله، ولا يدرك إلاّ بشق الأنفس مشاهدة جماله، إلاّ أنّه لزيادة إيمانه، ورسوخ حب الشيخ في جنانه، زاره في نشاط، وابتخاج وانبساط، ولمّا دخل عليه قام للإكرام والإعظام، فلم يطق النهوض لضعفه، فأعانه السلطان بلزوم كتفه، وتأدّب بين يديه، وأطال الجلوس لديه، عنده ورب السبع المثاني، دقائق ساعة ذلك النهار ثواني، وبالغ في التعظيم والتمجيد،

ولم يكن كبعض الملوك ثاني عطفة والجيد، ادام الله لنا دولته التي فضرب على ساحة العدل سرادقها، وأسفرت عن نجوم الهدى مشارقها، وبعد أن سأله عن أحواله، وحلّه وارتحاله، قال الشيخ: أحببت أن تكون زيارتي للرضا عليه السلام كبعض عرب البادية، الذين هم لنفوسهم فادية، القاصدين من الأماكن النائية، مشاهد الأئمة الهداة، مشاة حفاة، من كلّ فج عميق، زادهم السويق، ورفيقهم التوفيق، لكن حرمتي سوء البخت، وعرضني المرض فركبت التخت،

ويحكى أنّ أحدهم بعد أن نال المرام، قال لأمير المؤمنين عليه السلام: «قصدتك على تنائي الديار وبعد المزار، وطويت الفيافي والقفار، إلى أن اهتديت إلى مشهدك الأنور ومرقدك الأزهر، وما ادري أين أنت في المحشر، وأين ألقاك، وكيف أراك، فعليك أن تسأل عنّي هناك، وتقصدني لأراك، وتسعدني في المواقف والأهوال، وتنجيني من شدائد الأحوال».

فأعجب السلطان هذا الكلام، وعرف المرام، وقال: هكذا ينبغي أن يكون عقائد الإسلام.

أقول: ويروى عن الرضا عليه السلام: «من زارني على بعد داري أتيته يوم القيامة في ثلاثة مواطن حتى أخلّصه من أهوالها: إذا تطايرت الكتب يميناً وشمالاً، وعند الصراط، وعند الميزان»[٦]. وكان ذلك موعظة بليغة للسلطان.

٦. من لا يحضره الفقيه، ج ٢، ص ٥٨٤، ح ٣١٨٩.

ولو شرحنا خصوصيات المجلس لطرت طرباً وقضيت عجباً، كلّ ذلك لكونه عالماً عاملاً، زاهداً كاملاً، تاركاً للدنيا، من صلحاء الأُمّة الذين يكشف بنسائهم أدعيتهم غمام الغمّة، متّكلاً في جميع شؤونه على مولاه، نابذاً وراءه ما سواه، قائلاً: الله الله الله.

وكان السلطان أضمر في نفسه أن يلزمه بالبقاء، فأظهر ذلك عند اللقاء، فأجاب بأنّي أُحب أن يدفن هذا الجراب من العظام في جوار أبي تراب عليه السلام، وأمعن السلطان فيه النظر، وجسّ نبض أحواله بأنامل دقيق الفكر، فتوسّم فيه أنّه عليل، وتفرّس أنّ مرضه ثقيل، فلم يصرّ عليه وقام، وتناول بيده للتيمّن سفرجلة من منزل ذلك العلاّم، ثم أرسل إليه من الأطباء من نال من معرفة الأسباب ما صار به تذكرة لأولى الألباب، فبذلوا الجهد في العلاج، إلى أن حصل بعض الاعتدال للمزاج، والتمس منه السلطان أن يعين أحداً، لإجراء الماء من الفرات إلى كربلاء دائماً أبداً، لاانقطاع لأمده، ولا نفاد لمدده، ولو ببذل مال جزيل، فاعتذر بأنّه عليل، والحمل ثقيل، وكأنّ العطش مقدّر على تلك البقعة الشريفة من عالم الذر.

ثم إنّ اُمناء الدولة الجليلة أهدوا إليه أموالاً جزيلة، وسائر البرايا قد أرسلوا إليه هدايا، فتعفّف ولم يقبل من أحدٍ ديناراً، وكان ذلك له شعاراً، حتى أنّ اُخت السلطان، قد أهدت إليه سجّاده غالية الأثمان، فيها سبحة من الجوهر، ومعها عدة بدَر وصُرَر من الذهب الأحمر، فأخذ منها تربة حسينية -على مشرفها السلام والتحية-، وقبّلها، وردّ السجادة مع من أتى بها من قبلها.

وأمّا قبوله لهبة الدار الوسيعة، والبنية الرفيعة، المشتملة على بيوتات بديعة، الواقعة في كربلاء، المحفوظة ما دارت الافلاك عن البلى، بإصرار صاحبتها قمر السلطنة، صانها الله تعالى عن الخسوف مدى الأزمنة، بنت السلطان المبرور، والخاقان المغفور، فتحعلي شاه (طاب ثراه)، فوجهه مشهور، صانها الله مدى الدهور، عن كسوف الأعوام ومحاق الشهور.

ولعمري إنّه نَفَض غبار الآمال من ثياب الخيال، وطلّق الدنيا الفانية، ولم يدن من دنانيرها فإنّها زبانية، فكيف يقبل الهدايا والتحف، ومن عنده الدر لا يهدى له الصدف، نعم أهدوا إلى أصحابه من هاهنا وهنا، أموالا نالوا بها الهنا، فكلّ منهم آب مملوء الجراب، مشحون الإهاب، وعين السلطان لبعضهم من الإدرار، في كلّ سنة مايزيد على مائة دينار، والله تعالى متكفّل لأرزاق الأُمم.

ثم خرج الشيخ من طهران، وشيعه من الأكابر والأعيان، من تلقّته وزيادة، وتالوا بذلك السعادة، وأرسل إليه السلطان خاتماً مع أحد الوزراء الأعيان، فلسّمه إليه عند الوداع وتفرقة الاجتماع، المحرقة للجوانح والأضلاع، والناس أرعدت على فراقه عيونهم، وسكبت الدموع كالغيوم جفونهم، ترمى نيران أفئدتهم بشرر، وجزعت نفوسهم على فراق جعفر، وهو يحنّ إلى العراق، ولاكحنينن المشتاق، وضني من ألم الفراق، بل قد غشي عليه فلايكاد يفيق بألف رداق، يجدّ في السير، كأنّه عاشق التهبت نيران الهوى في فؤاده، فأسرع ليحظى بمعشوقه وقد دعاه لوصاله تاركا لذيذ رقاده وسهاده.

إلى أن ورد هو وصحبه ليلة الأربعين ممسين، بلداً يقال له: «قرميسين».

ولم يمرّ بهمذان، فإنّها لم تكن على طريقه، وإلاّ فهي من أحسن البلدان، فيها جبال شامخة الرؤوس، قد نقشت ثيابها برياض ترتاح لها النفوس، وأمّا اروند فجبل يضيء فيه فناديل النجوم، وتلتفّ على هامته عصائب الغموم، يزاحم الأفلاك بالمناكب، ويكاد أن تلتقط سكانه لآلي الكواكب، نعم هي في الشتاء باردة الهواء، وبالغ من قال يلمّ بها الصيف كما يلم الضيف، أولا يرى إلاّ في الطيف، أو أنّ أهلها يحتاجون في حزيران إلى كانون.

وقد يقال نحو ذلك في حرّ العراق، فإنّه خارج عن حدّ الاعتدال عند معتدل المذاق، إذا شبّ الصيف ضرامه، ونشر الحرّ أعلاّمه، هب من السموم رياح تذيب الأرواح، وأضحى النبات هشيماً، والفلاة جحيماً، وكثيراً ما يذكى في كانون فؤاد سكنته النيران، ولولا المشاهد الشريفه والمراقد المنيفه لم يمرّ به إنسان، ولا سيما أهل ايران.

فشكر أهل قرميسين قدوم ذلك الإمام شكر الرياض للغمام، وكان لناظرهم نوراً مبصراً، ولناضرهم نوراً مثمراً، وكانت نفسي موقنة بأن ستُسَرّ بهلال طلعته وإن استسرّ، ولم أزل أستهدي الوفد أخباره والرواة آثاره، وأستنشق نسيماً يؤدّي بنا سلامة ذاته العالية، وأشيم وميضاً يبشّر بكونه في خصب عيشة راضيه.

حتى جرّد الدهر من قراب النوائب الفِرند، وساقه الأجل الذي لامفر منه إلى كِرند فوقعت به يوم وفاة النبي صم الواقعة وحرّكت الحلقة على بابه القارعة، وفتك به الأجل فجعل نهاره الليل، وهجم عليه بالثبور والويل، ونجم عمره هوى، وغصنه ذوى، ولم ينبط له بساط العيش حتى انطوى، وقد فاتته فريضة الصبح ذلك النهار، فكان يقضيها قريب الزوال، فقبض ولسانه ينطق بالذكر في غاية الإقبال، وحق للمحبّ ان شق القميص على لبّته، وللقلب إن شوى بحبته على مقلى محبّته، وود كل مؤمن أنّ الدنيا محته، والعقبى التقمته، وبكت عليه السماء بعيني شمسه وبدره، فنثرت دموع النجوم، وصفق الفلك بكفي شرقه وغربه أسفاً على من كان بهداية الأنام يقوم، فلا برح الرضوان صاحبه، ونسمات الغفران عليه صاحبة.

وأمّا أنا فكلّما أردت أن أستمسك بعرى الصبر، وأنبذ الغم وراء الظهر، وأطرد بحسن التسلّي ما اختلج من الهم في الصدر، احترق قلبي فانحلّ من عيني الوكاء، وخنقتني العبرة وغلبني البكاء، فإنّ المصيبه وإن كانت تشق من قوم ظاهر الجيوب، إلاّ أنّ مصيبته شقّت منّي باطن القلوب، لأمورٍ لا يعلمها الاعلاّم الغيوب، وعمدتها أمران: الأوّل ماكان بيننا منذ أزمان من المودّة الكامنة والمحبّة الباطنة، والاختصاص الذي يطلع من جيب واحد رؤسنا، ويحيى بروح واحد نفوسنا، الثاني أنه كان حائز الصفة نافعة في الإسلام ولعموم الأنام، وهي الهداية والإرشاد إلى طريق الحق والسداد، والآن لامثل له في البلاد.

قد كاد يصدع رزؤه الصخر الذي　　قد كان منه يلين بالانذار

فصبراً على مجاري الأقدار، واستسلاماً لاختلاف الليل والنهار، اُفٍّ لهذه الدنيا الدنية التي ليست فيها اُمنية وعقباها المنية، هي دار البوار ليس لأحد فيها قرار وإقبالها إدبار.

إنّ الليالي لاتبقي على حال　　و الناس ما بين آمال واجال

كيف السرور بإقبال وآخره　　إذا تأمّلته مقلوب إقبال

لاتنتهي فيها المواهب حتى تتخلّلها المصائب، ولا تصفو فيها المشارب حتى تكدّرها النوائب

لقد حبّب الموت البقاء الذي أرى　　فياحسداً منّي لمن يسكن القبرا

فهي أشبه شيء بظلّ الغمام وأضغاث الأحلام، أهلها كركب يسار بهم وهم نيام، فساكنها راحل وأنفاسه رواحل، وأيامها مراحل، إقبالها كإلمامة ضيف، أو سحابه صيف، أو زيارة طيف:

أفٍ لدنيا وأيامها　　فإنّها للحزن مخلوقة

غمومها لاتنقضي ساعة　　عن ملك فيها ولا سوقة

ياعجباً منها ومن شأنها　　عدوة للناس معشوقة

ولما ورد نعشه لعشر خلون من ربيع الأوّل القصبة الكاظمية شيعه شيعة العراق زمراً، ونثروا عليه من عيونهم دراً، وعند دجلة الخبر مما جرى من العيون، وتصاعد من الزفرات حتى نكسته على اُخدود الخدود الجفون، واجتماع في تشييعه من السادات والأجلة وعلماء الملّة والاُمراء والحكّام وخازن روضة الكاظمين عليهما السلام الخدام بأيديهم الأعلام والتجار والأشراف وسائر الأصناف منتهى الجموع، وعيونهم تساقط دراً حشاها آذانهم في مواعظه التي مدى الدهر تضوع، ولمّا كانت أيّام ولادة النبي صلى الله عليه وآله تحيروا بين أمرين: الضحك حتى ينفطر القلب والبكاء حتى تذهب العين، وعبر الناس الجسر الجديد الممدود إلى القصبة الأعظمية للاستقبال، فرأوا أن شيعة بغداد من الخيالة والرجّاله قد سبوقهم إلى أميال، فحملوا من الأطراف، التخت على الأكتاف، إلى أن وضعوه في الرواق المطهر، تحت رجلي الإمام الأطهر موسى ابن جعفر عليهما السلام ما أضاء القمر، ثم أثاموا المأتمه خمس مجالس جليلة، بذلوا فيها أموالاً جزيلة.

ثم حمل إلى كربلاء المشرّفة، واجتماع في تشييعه من الاُمم المختلفه اُلوف مؤلّفة، وتسابق إلى القنطرة البيضاء الأشراف، وحملوا بيض الله وجوههم التخت على الأيدي والأكتاف، وقد انحلّ من الناس الوكاء، وتفجّرت عيونهم بالبكاء، وأقام العلّة الغائية، للعترة الطباطبائيه، حجة الإسلام، وحامل لواء شريعة جدّه صلى الله عليه وآله، ابوالقاسم ابن الحسن الطباطبائي مجلساً للفاتحة، غاصاً بالداني والنائي، واُقيمت مناحات ومجالس اُخر لم تكن كمجلسه في عين الرائي.

ثـمّ حمل من الطّف إلى النجف الأشـرف، والمشـهد الذي بالجـوزاء تمنطق وبالثريا تشـنّف، وشـيعته العشـائر التي في الطريق، وقبائل العرب فريق بعد فريق، ولا تسـأل عن أهل النجف، فإنّ همتهم بلغت الذي، وقد خرج للتشـييع جميع الورى، وسعت النفوس عن إخلاص مغروس، وهم يهلّلـون ويسـبحون الملك القدوس، ورفعوا التخـت على الرؤس، إلى أن دفنـوه في جوار الحيدر الكـرار، والغيث المدرار (سـلام اللـه عليه مادام الليل والنهار) فـي الصحن المطهر، في حجرة فوق الراس الأنور سـقى اللـه ثراه هواطل الرضوان، وجعل مثواه في أعلى غرف الجنان، ما طلع النجم في الخضراء، ونجم الطلع في الغبراء.

فألقت عصاها واستقرّ بها النوى كما قرّ عيناً بالإياب المسافر

وقد تناثرت نجوم كثيرة في ليلة العشـر بن من صفـر، إلى ثلثي الليل أو أكثر، وكانت الناس إذّ ذاك في ماتم سبط سيدالبشر، وسليل ساقي الكوثر عليه السلام مانجم زهر، فأرّخ ذلك بعض من حضر فقال:

في صفر ليلة العشرين مذ تفجّرت مدامعي أرّخته كواكب قد نثرت

١٣٠٣

ولما أتى نعي الشيخ الجليل جعل ذلك تاريخه كما قيل:

من السـما وقد نثرت كواكب في الأرض لمّا نشـرت مصائب لفقده كواكب قـد نثرت أرّخته قد نثرت كواكب

١٣٠٣

وارخنـاه نحن بكلمة واحـدة، لاناقصة ولازائدة، فقلنـا: لمّا توفّي جعفر وقلوبنـا ذابت له ومن العيـون تناثرت وتفطر الصخر الذي قـد لان من إنذاره وله العقول تطايرت استبشـر الفردوس حين وفاته والحور فيه أرّخوه تباشرت

١٣٠٣

وقد توفي في هذا العام عـدة من العلماء الأعلام، وكيف الاصطبار على فقد هؤلاء الكرام، الذين جعلهم الدهر مرامي للسهام، فتم له لمرام:

ولو كان رمحاً واحد الاتّقيته ولكنه ثان ويتلوه ثالث

فتوفي في الري الكوكب الوقّاد، الآميرزا صالح بن حسن الداماد.

وفي قم دليل المرتاد السيد جواد، أفاض اللـه عليهم سحائب رضوانه أبد الآباد.

وفي كربلا ذوالفضل القوي، المولى تقي الهروي، وقد كان له قدماً في تدريس العلوم دوي.

وفي طوى ذوالفضل الشاهد به الشاني، المولى عبداللـه القاشاني.

وفي أبي شهر المحدث المشهور الشيخ عبد على من آل عصفور عن سبع وسبعين سنة.
وفى كِرند العالم العامل السري الشيخ جعفر التسترى عن ثلاث وسبعين سنة.
لازالت ساحبة عليهم ذيول نسمات الرضوان، ومسبلة عليهم عوادي مزن الغفران.
ولنا في ذلك تواريخ عديده منها هذان البيتان:

وفيات الأئمة اتصلت — وعرى الدين والهدى انفصلت
مذ أجابوا النداء أرّخها — هي في الدين ثلمةٌ حصلت

١٣٠٣

والى الله المشتكى من خلوّ البلاد عمن هو للشريعة عماد، ولكل قوم هاد، و أخاف من تناثر النجوم أن يطوي من البسيطة بساط العلوم، فيجب على الطلبة الأفاضل الأمجاد من أهل الاستعداد، أن يبذلوا السعي في تحصيل ملكة الاجتهاد، للقيام بهداية العباد في البلاد.

* * *

فصل في تواريخ وفيات بعض مشايخنا الأخيار وغيرهم من الأبرار وبعض التواريخ الأُخر والأشعار:

فمنها ما أنشاناه في وفاة العالم المشتهر في الأقاصي والأداني، أحد مشايخنا في الإجازة الحاج الآميرزا أبوالقاسم بن كاظم الموسوي الزنجاني، وقد أجازنا في بعض ليالي شهر رمضان سنة ست وثمانين بعد الآلف والمئتين أن نروى عنه ما يرويه عن نخبة العلماء الأعلام، الهادي باشاراته إلى مناهج الأحكام، طود الفضل الراسي، الرافع قواعد بيت الفقاهة الحاج إبراهيم بن الحسن الكلباسي، الخراساني الإصبهاني، رزقه الله في الجنتين الجنى الداني:

قيل لي مالك في حزنٍ طويل واكتئاب — وعلى عارضك الدمع مداماً في انسكاب
قلت إنّ الدهر يرمى كل يوم بمصاب — وعلينا سلّ أسياف المنايا من قراب
نير الفضل ابوالقاسم قدمات فارخ — نور قدسٍ أوبهاءٍ قد توارى في الحجاب

١٢٩٢

ومنها ما ارتجلناه في وفاة العلامة الراقي من العلوم والفضائل أعلى المراقي، أحد مشايخنا في الإجازة الحاج المولى محمد ابن مستند الفقهاء في مناهج الأحكام أحمد النراقي -قدس الله سره- وزين به في الجنان الأسرة:

الدهر من حقده بصارمه — أعناق أهل المعارف احتزّا
أماترى اليوم كيف صال على — محمد من شبه الهدى اعتزّا

فشنّ غاراته عليه ضحى فيلت عنه أرواحنا ابتزّا
زلزلت الأرض كالسماء له أرّخ به العرش ركنه اهتزّا

٤١٢٩٧

ومنها ما قلناه في وفاة سيد المدرسين في الغرى، طود الفضل، السيد حسين التبريزي الكوه كمري ـ قدس الله سره السري ـ وهو أحد مشايخنا في الإجازه:

عيلم العلم حسين ذوالعلى من له الفضل خدين واليف
كم على الرأس إلى كعبته من رواة العلم افواج تطوف
كان للاسلام طودا شامخا شاده عزا فهزته حروف
ازهرت فيه رياض للهدى فبها اودى خريف وقطوف
نير اذكى مصابيح التقى فاعترى أنوار علياه الكسوف
جرد الدهر عليه سيفه وعلى الأحرار للدهر سيوف
انشب الموت به اظفاره ورمته في الغريين الحتوف
طارني جنات عدن روحه وتلقته من الحور صفوف
مذهوى نجم علاه ارخوا كوكب في العلم وأراه انخسوف

ومنها ما أنشاناه في وفاة ناظم عقد الفروع والاصول جامع المنقول والمعقول سيد مشايخنا في الاجازه معزالدين أبي جعفر محمد ابن الحسن المدعو بمهدي الحسيني الشهير بالقزويني الحلي كسا الله أفخر حلى وهو افضل العلماء الحليين توفي في رجوعه من مكة المشرفه قريباً من سماوة ورفعه الله إلى عليين

اما منا المهدى قد غابا إلى مقام القرب قد سارا
ذابت قلوب الخلق من غيبة بها ابان الله اسرارا
بحر هدى كشف الغطالم يزد يقينه اذكان ذخا را
اسرى به الله إلى عرشه ومن لدنه حازا نوارا

١٣٠

ومنها ماقلنا في وفاة المحقق الذي اناخت الرجال بابه الرحال ونالت من علومه الآمال من لم تزل مراحمه تغشاني ومكارمه ترفع شانى أحد مشايخنا في الاجازه المولى حسين ابن اسميعيل اليزدى الاردكانى -قدس الله سرّه النورانى ـ:

اضرمت الأكباد نيران الجوى — لفقد من قد ذهبت به النوى
ذاك الحسين الدنب من ارزائه — اصمت فؤاد العلم في سهم التوى
قد ذاب اقصى الروح في تاريخه — قضى حسين نحبه في نينوا

١٣٠٢

ومنها ما أنشاناه في وفاة الوالد الخالد في الجنان وهذا غير ما ارخنابه وفاته في سالف الازمان وفى الخبران ان الآباء ثلثة : أب ولدك وأب زوجك وأب علمك ؛ ولا تباين بينهم فقد يجتمع في واحد اثنان فيتعاظم تعظيمه مدى الأزمان لما دعى الوهاب عبده إلى لقائه وقد اجاب وأتمر عنا توارى وجهه من بعدما ضاء وقد ارخته البدر استتر (١٢٩٨)

وقلنا ايضاً :

لما دعى الوهاب عبده إلى لقاء وجهه سعى مهر ولا واستقبلته من جنان حور واز دلفت منه له قصور تجرى له من تحتها الانهار ليس بها ليل ولا نهار فاض عليه من لدنه النور غاب كما تحتجب البدور لما توارى وجهه عن النظر طوبى له ارخته البدر استتر

١٢٩٨

ومنها ما انشاناه في وفاة الخليل ابن كاظم وهو احد اقاربنا الاعاظم

سحر ليلة الاحد لخمس مضين — من شهر رمضان شعر
يا ايها الموت الذى لاملك — ينجو ولا يسلم منه ملك
اراك في احبتى بصيرا — لاتترك الكبير والصغيرا
افنيت كل من غذا خليلى — نحوت نحوهم بلا دليل

نزلت بالخليل نجل الكاظم من ارتقى في ذورة المكارم فخر نجمه إلى الاقول ولم يجد بداً من القفول لما دعاه الملك الجيل ارخت قد توفى اثخليل

١٣٠٢

ومنها ما قلناه في وفاة خلاصة العلماء الخالصين والسادة المخلصين محمد ابن الحسن من لم يجئى مثله ولا يجئى محسن ابن الحسن الحسيني البغدادي الاعرجي شعر

سهم المنايا اصابا — قلب البرايا فذابا
اذار عيلم علم — وكوكب الفضل غابا
محمد من ادانا — من العلوم العجابا

ومن حوى غيره القش — روهو خاز اللبانا
اماط عنها بسر من — الا له الحجابا
وقد ابى مذتجلى — لناضياء الغيابا
لكن دعاه مناد — الى العلى فاجابا
سرى إلى عالم القدس — جاب منه الشعابا
حتى دنا فتدلى — وازداد ثم اقترابا
عن الشهود ترقى — ارخ هو النور غابا

١٣٠٢

فهذه اثنى عشر تاريخاً من وعاها قال هذه الدرارى في ابراجها اوالدرر تنضدت في ازدواجها ولولا الستعجال لجمعنا ما تفرق من تواريخنا في الاوراق ممادق اوراق فالحمدللّه الملك الخلاق والصلوة على محمد افضل أهل الآفاق واله الذين خضعت لهم الاعناق وقد وقع الفراغ من تسويد هذه الاوراق التى هى اغلى من الاوراق على يد منشيه المفتاق صان الله قمر وجوده عن المحاق بمجهد واله صلى الله عليهم مادامت المشس في الأشراق لسبع ان بقين من شهر ربيع الأوّل سنة ثلاث وثلاث مائة والف.

١٣٠٣

قد تشرف بكتابة هذا الكتاب الشريف والخطاب المنيف
الموسوم بـغنيمة السفر في احوال الشيخ جعفر
تغمده الله بفضله الاوفر
أقل أقل الطلبة
محمد علي
عمه الله بعفوه
الجلى
وقد وقع الفراغ من كتابته في سلخ ربيع الآخر
فى سنة ١٣٤٠

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی